وكانت عيناه مغلقتين، كأنه في غفوة أو استراحة قصيرة. اختفى القطار، وبقيت واقفا على الرصيف.

حكيت لزوجتي، لم تصدقني. ساعتها تذكرت المرتين السابقتين، قلت ما نفع الاستمرار مع زوجة لا تصدقك؟! ولكن هي التي ذهبت، حملت البنات وقالت: مجنون. ولما أردت استرداد البنات، شهّدت أبي عليّ، صدقها وقال مثلها إنني مجنون. ربما صدقها، لأن أخي لم يظهر له ولا مرة واحدة فظن أن ابنه ذهب تماما، وأن رؤيته صارت من المستحيل. ولما ذهبنا إلى المحكمة صدّقهم القاضي وكذّبني. هذه حكاية قديمة، أقصد، لم يعد يؤلمني أنهم كذّبوني. حفيدتي تصدقني، وأيضا محمود، وهذا مهم، وأنا أصدِّق ما رأيت، وهذا يكفيني. ربما أتمنى لو أستطيع أن أتحدث مع أخي، أشكو له، أطلعه على بعض ما حدث، أستشيره في أمور، لكن يبدو أن الموت لا يسمح بأن نحكي سويا، أو يسمح ولم يحن الوقت بعد.

في خريف عام ١٩٥٦ كنت أخرج كل ليلة للمشاركة في أعمال الدفاع المدني، أعلق شارة على أعلى ذراعي الأيمن وأمشي في شوارع الحي أثناء الغارة، أصيح «طفّوا النور»، أساعد من داهمته الغارة في الطريق، أو أبلغ عن أي أمر يدعو إلى الاشتباه وغيرها مما يقوم به المتطوعون من الشباب. أعود إلى البيت في ساعات الفجر الأولي فأجد أخي جالسا في انتظاري. كان في التاسعة من عمره.

كثيرا ما أستعيد صورة أخي وهو طفل صغير. أراني وأنا أحمله رضيعا بين ذراعي، أستعيده وهو في أول المشي والكلام، تتصدر بين التفاصيل الكثيرة وقفتي بجواره أمسك بيده في يميني، أقول له: «لا شيء يخيف. إنه من الخشب. أنظر. أمد يدي اليسرى إلى فم السبع وأدخل أصابعي فيه، أتطلع إلى أخي، أشجعه على الاقتراب، أشعر بمقاومة جسمه وقدميه المثبتتين في الأرض. كان أبي اصطحبنا معه لزيارة قريبة من قريباته. زوجها من قيادات